الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي
الطاهر وطار
دراسة سيميائية

الأستاذ : **رشيد قريبع**
كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية
جامعة منتوري قسنطينة

كتبت هذه الرواية سنة 1999، وهي رواية إشكالية بصيغة حديثة، وقد سبق أن تعرضت بالدراسة لهذه الرواية، وتناولت جانبا أعتقد أنه مهم وله علاقة بالإبداع والرواية الجزائرية الراهنة. رواية «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» تطرح على القارئ عدة تساؤلات لتضعه في النهاية أمام جملة من الإمكانات المحتملة، لهذا كانت العلاقة بين الإبداع والراهن، هي المنطلق -على الأقل في اعتقادي الخاص- الذي يمكن منه الولوج إلى فهم الرواية، ولكن لماذا الراهن؟

إن القضية أو القضايا المطروحة في الرواية قريبة جدا من زمن الكتابة، إلى درجة يمكن أن نعتبرها من الأدب التسجيلي.

في هذه الدراسة سأحاول أن أتناول الرواية في مقاربة سيميائية أبدأها بالعنوان.

1. العنوان:

يضع عنوان الرواية القارئ أمام متاهة حقيقية تستدعي تمعنا «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»

الولي: اسم يطلق غالبا على الرجل الذي يعتقد الناس في الأوساط الشعبية أنهى رجل قريب من الله، متمكن من بعض الأمور التي لا تتاح للجميع، ومن هنا تكون مكانته خلال حياته مرموقة وقبره بعد وفاته مزارا.

الطاهر: لفظه لها دلالات متعددة؛ الطاهر وهو المتطهر من كـــل درن أو وسخ القادر على الصلاة، ويمكن أن يكون أيضا اسما لشخص: الطـــاهر وطـــار مثلا.

يعود: من الفعل عاد أي رجع، وهو مركـــز الجملـــة وبؤرتـــها، ومفتـــاح الرواية، وعندما نسمع «يعود» نكون بوصفنا متلقين أمام موقفيـــن أو احتمـــالين: الأول وهو التساؤل عن المقصود، هل هو رجوع الرئيس إلى السلطة بعد أنقطـــاع والثاني، هل المقصود هو عودة الفيس إلى السلطة بعد منعه بوصفه تيارا إسلاميا.

الحاصل من كل هذا أن العودة تثير تساؤلات وتبيح للعنوان إشكالية يمكـــن أن تتدعم بعد ذلك بما يأتي بعد حرف الجر.

إلى: يدل على المقصد المقصود، أو المكان المقصود من العودة.

مقامه: هو المكان الذي نعود إليه أو نقوم فيه ونقبع به، وهو أيضا المنزلـــة والإقامة وموضعها.

الزكي: هو المطهر، المنقى.

وهكذا فان العنوان يتشكل من جملة تامة كاملة الدلالة، رغم أنها لا تجيـــب عن تساؤل عميق يطرح نفسه على القارئ منذ العلاقة الأولى مع الرواية، ويبقـــى دون جواب مما يزيد اللهفة لديه إلى أخر لحظة، قد تكون هذه هي رغبة الطـــاهر وطار، الإلحاح في الترميز والتضمين لضمان القرابة والوصـــــال بيـــن القـــارئ والرواية.

يدخل القارئ الرواية، يسرع القراءة، يستزيدها بحثا عن الإجابة، وحيـــــن يقترب منها تبدو له حالة صوفية، سديمية جوفاء وغامضة.

2. ميـــدان المقـــاربات:

يعتمد الكاتب كثيرا على المقاربات بين مجموعة من الأحـــداث والحـــالات منها خاصة:

أ. حالة العضباء التي اختارت المكان لتبرك فيه مع حالة العضباء التي وقفت في الجزائر فكانة الأحداث المعروفة.

الكاتب هنا لا يملك تحديدا زمانيا ولا ارتكازا مكانيا، وهو ينتقل من وضعية الانتصاب وسطوة الشمس على الرأس إلى صلب الموضوع.

ب. حالة مقتل مالك بن نويرة من طرف خالد بن الوليد، والاختلاف الذي حدث حول ذلك ثم انتصار الخليفة الصديق لخالد على حساب عمر بن الخطاب مع حالة القتل الراهنة وانتصار بعض الفقهاء في الداخل والخارج لها.

تصور الرواية عودة المفتي «عيسى لحيلح» إلى المقام، وهي تحتوي على تصريح سردي يبعث على التساؤل لماذا عاد إذن؟ وهذا التصريح هو:

«إنني ما عدت أفرق بين هاوي سياسة وهو يطلق آلاف الوعود القزحية [1] وبين ساحر ماهر وهو يخرج عشرات الأرانب من تحت القبعات» [2].

هذه هي الحال التي وصل إليها الوضع في الجزائر، فقد صار الشعب لا يثق بالسلطة لأنها غير صادقة، إنها تكذب على الشعب، نلاحظ أن هذه الجملة يأخذ بعدها الحقيقي إذ عرفنا صاحبها: «صاحب هذه الصورة، المجرم الخطير المدعو عيسى لحيلح».

«يكافأ كل من يأتي به حيا أو ميتا بمليون دينار» [3].

صورة أخرى:

«فتح بطاقة تهنئة صغيرة، يزدان ظهرها بورود حمراء، تسقط فوقها من ظرف رسالة قلوب حمراء أيضا عليها نقاط بيضاء» [4].

المفارقة في هذه الصورة تتجلى في اللون:

الأحمر ؟ الأبيض.

والتضاد هنا غريب لأن المفروض أن يكون الأسود ضد الأبيض لكنه سيصير طبيعيا بعد استقراء وضعية الفاعل الواضع: عيسى لحيلح.

والأحمر هنا يرمز لشيئين هما:

سياسيا: مرحلة الاشتراكية أو كما يسميها البعض الشيوعية ويرمز له باللون الأحمر.

فيزيولوجيا: الدم أو القتل والبطش.

وفي المقابل هناك اللون الأبيض، وهو يرمز للسلم غالبا أو للاستسلام أحيانا:

اركنوا للسلم.

3. زمن السرد:

تروي الرواية بفعل الماضي وإن كان هناك المضارع فلأنه ينطلق من الزمن الفاعل (الذي يتبع السرد) فيكون تتمه لحركة مؤسسة بالزمن الماضي.

«تبادل الخصمان الأولان رسائل لا سلكية، وقرروا أن هذا الطرف الثالث في هذه الحرب المقدسة لن يكون سوى طرف عميل دخيل، اندس بين الصفوف لشقها، تقرر أن يخوض الجميع الحرب ضد هؤلاء العملاء الدخلاء.....»[5].

وكذلك:

«كبر الجميع ولغطوا بلغة غير مفهومة ثم تسابقوا يسلمون على رأس الوالي الطاهر ويسألونه من يكون، ومن أين جاء ومن أرسله»[6].

يحيل المقطعان السرديان السالفان على التالي:

هناك فرق ثلاثة أعداء:

عدو وعدو وعدو.

تتحول فيما بعد إلى:

عدو وعدو يصيران حليفين ضد عدو.

فتصير المعادلة ذات المجاهيل الثلاثة بمجهولين، ادمج مجهولان لاحتوائهما نفس العناصر ضد مجهول عدو.

والمشكلة هي: من هو العدو الثالث ومن يكون العدوان المدمجان؟

يجيب الراوي عن التساؤل فيقول أنه العميل ويبقى هذا المجهول أبديـــا لا يمكن تميزه. وحتى الوالي الطاهر الذي يسقط الطائرة غير معروف، من أين جـاء ومن هو؟ هو السؤال المحوري لكل الرواية.

ينضوي المسار التساؤلي السابق تحت سياقات تبعث على التساؤل وتـــأكد وضعيات معلومة سلفا لدى القارئ وهي:

- يقال دائما: هؤلاء المفسدون ليسوا جزائريين، الجزائريون لا يفعلـــوا مثل هذه الأعمال الشنيعة.
- عثرنا على أشخاص ليسوا جزائريين جاؤوا من دول أخرى.
- هناك أشخاص متدربون وقادرون على النط والرماية السديدة.

وهكذا يستغل الكاتب طريقة السرد للتأثير على القارئ «فالخطاب المسرود بخصوصيته التاريخية(التسجيلية) يتجاوز والخطاب المنقول الذي ينقـــل الخطـــاب المعروض بواسطة السرد»[7]. لكنه بمقابل ذلك يمارس تغليطا رهيبا على القـــارئ من خلال توظيف أنساق سردية ضبابية:

«اللهم يا ذا الجلالة والإكرام لا تنسنا ما أقرأتنا، اللهم يا خـــافي الألطـــاف نجنا مما نخاف»[8].

«قفز إلى ظهر العضباء يتمتم كأنه يرجوها الانطلاق "باســـم الله مجراهـــا ومرساها"»[9].

«لم يجد ما يجيبها به سوى قراءة "سبح اسم ربـــك الأعلـــى الـــذي خلـــق فسوى".

مسلم. مسلم. ارتفعت الأصوات»[10].

هذه انساق سردية لها دلالة سيميائية تختلف دون شك عن الأنساق السردية التالية:

«لا يمكن حصر جنس للشيطان، ولا صفه، ولا ذات، يكون كما يشاء رجلاً أو امرأة، ثعبانا أو بقرة، شابا أو عجوزا» [11].

لاحظ الصور السردية التالية:

.«لا حي في الحي سوى من يتقرر سبيها.

- لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمد رسول الله.

يهوى الساطور، يتدفق الدم، يتطاير الرأس....

- يا اخوتي، يا اخوتي.

يهوى الساطور، يتدفق الدم، يتطاير الرأس.

- يا أبي، يا الهي، يا أمي، يا خويا قدور.

يهوى الساطور يتدفق الدم يتطاير الرأس.

- يا العسكر، يا الحكومة.

- أنا معكم منذ البداية، ولم أخن، لم أش بكم، لم أش بأحد، أعفوني وسترون.

- لا أنبت الله لكم زرعا، ولا در لكم ضرعا...

- رضعه واحدة، واحدة فقط لوليدي، اسمعوا إنه يصرخ...

- إذا كنتم حكومة أنا مع الحكومة.....»[12].

والإجابة في كل الحالات واحدة، يهوى الساطور يتدفق الدم يطير الرأس.

نتذكر بالمناسبة قطع رأس مالك بن نويرة.

من يكون قاطعو الرؤوس، هم دون دون غير الذين ذكروا متوسلين، ومع ذلك فانهم ليسوا واضحين، وهم ليسوا رحماء، وقتلة، ودمويون، ولكن من يكونون؟

إن الرواية تستحق قراءات مختلفة وهي في كل مرة تعطي نتيجة مخالفة مغايرة، وهو ما يزيد في تعقيدها، وفي نكهتها أيضا. ولكن القارئ يستطيع

الوقوف على معالمها من خلال تحليلها إلى مجموعة من الدوال التي تتمظهر كالتالي:

- المدلول التاريخي.
- المدلول السياسي.
- المدلول الديني.

وهي الحقول الدلالية التي تتشابك حول بؤرة أساسية متشبعة بأفكار الكاتب، والواقع انه لا يمكن الحديث عن التبئير إلا بعد قراءة الرواية قراءة متأنية، وتبقى البؤرة التي وظفت من أجلها الحقول الدلالية المذكورة هي دون شك الثورة الإسلامية. التي بدأت في الرواية باستعراض الوضعية وضدها.

في حادث مقتل مالك بن نويرة موقف: عمر بي الخطاب ؟ موقف خالد بن الوليد.

- زوجه مالك بن نويرة، أم متمم تتزوج من خالد قاتل زوجها.
- الطالبات في الحي الجامعي ؟ الطلبة في الحي الجامعي.
- الحالة الصوفية ؟ النتيجة، السقوط.

وهكذا يمكن استكشاف الرواية استكشافا تقاطبيا يمكن بصورة أو بأخرى من تجاوز الغامض وتوضيح المعتم.

الـهـوامـش

[1] - قوس قزح: شكل جميل لكنه كاذب لا يلبث أن يزول، لاحظ المقاربة بين كذب الطبقة السياسية وكذب الطبيعة.

[2] - الرواية-ص137.

[3] - الرواية-ص137.

[4] - الرواية-ص137.

[5] - الرواية-ص34.

[6] - الرواية- ص35.

[7] - سعيد يقطين- تحليل الخطاب الروائي- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط 3. 1997- ص 264

[8] - الرواية-ص16.

[9] - الرواية-ص17.

[10] - الرواية-ص17

[11] - الرواية-ص37.

[12] - الرواية-ص104، 105.